في ذكراها في دمشق تجلت وحملت اسم المكان «الصوفانية»

الأب الياس زحلاوي يروي معجزة الصوفانيّة لـ«الوطن»: «احملوا الشرق في قلوبكم» هنا انبثق نور من جديد

عامر فؤاد عامر
تصوير طارق السعدوني

لقد كتبت هذه التجربة وتفاصيلها في كتب باتت معروفة، وتُرجم بعضها إلى الفرنسيّة والإنكليزيّة والبرتغاليّة. ولكن ما رأيت منذ زيارتي الأولى، ولّد لدي القناعة بأن هنا شيئاً ما يحدث، ويجب أن أتابعه، وتابعته. واتضح لي شيئاً فشيئاً، أن هناك فعلاً تدخلاً من عالم آخر. وهذا يذكّرني بكلمة قالها «يسوع» في آخر الإنجيل، لتلاميذه: «اذهبوا وتلمذوا كلّ الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وها أنا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدهر». وكنّا نسمع ونقرأ عن ظهورات هنا وهناك، في فرنسا، في كندا، في يوغسلافيا، في اليابان... إلخ.

فما يحدث خارج الوطن العربي، لمَ لا يحدث عندنا؟ ولكن اقتضى مني ذلك مراقبةً دقيقةً جداً، وصارمة. واتضح لي شيئاً فشيئاً أن هنا تدخلاً ربّانياً. فالصلاة تتواصل ليلاً ونهاراً. الزيت ينسكب بصورةٍ متقطعة. الزيت يظهر على يدي «ميرنا»، وهي عروس. وهذا يذكّرنا بقدسيّة الزواج. ثمّ حدثت أشفية. أوّل شفاء حدث كان لسيدة مسلمة من حيّ ركن الدين، تدعى «رقيّة كلتا»، وبحضور طبيبٍ مسيحيٍ أردني، يدعى «جميل وجي»، وهو لاجئٌ سياسي، ولكنه ملحد! جاء ليفسّر الظاهرة باسم العلم. وعندما شاهد السيدة «رقيّة» قبل شفائها، ويدها المشلولة لا تتحرك، وفجأة رأى يدها بعد لحظات تتحرك، فيما هي تحاول أن تصرخ، ولكنها لم تعد تستطيع أن تنطق بكلمة. قرأ هذا الطبيب التقرير الذي كان الدكتور «سمير رومانى» قد كتبه لها قبل يوم واحد، وكان ابنها يحمله في جيبه. قرأه ثم فحص السيدة، وعاد وقال لي: «أبونا أنا رميت سلاحي... هذا شيءٌ يفوقني ويفوق كلّ إنسان!»، وشيئاً فشيئاً أخذت تحدث أمورٌ أخرى. ظهرت السيدة العذراء للصبية «ميرنا». في أوّل ظهور، هربت لأنها خافت. ثم استعدّت. بعد ذلك ظهرت لها السيدة العذراء ٤ مرّات. وهي المرّة الأولى في التاريخ التي تتكلم السيدة العذراء فيها بالعربيّة. الرسالة الأولى بالفصحى، والثانية والثالثة بالعاميّة، والرابعة بالفصحى. أوّل كلمة قالتها: «أبنائي أذكروا الله لأن الله معنا». وتابعت: «أنتم تعرفون كلّ شيء، ولا تعرفون شيئاً»، وتابعت: «أنا لا أطلب مالاً يُعطى للكنائس، ولا مالاً يوزّع على الفقراء، أطلب المحبّة». والرسالة الأولى أنهتها بهذه العبارة: «أعطوا، لا تحرموا أحداً ممن يطلبون النجدة». وكان الزيت يتواصل، والمصلّون حاضرون ليلاً ونهاراً. وقد علّق صاحب البيت إعلاناً عند مدخل البيت، جاء فيه: «نرفض أيّ تبرع، أيّاً كان!»، وتواصلت الأمور. وكانت الصلاة تستمر. وحدثت أشفيةٌ عديدة... يومها كانت «ميرنا» وهي في الثامنة عشرة من عمرها، ولم تكن قد تقدّمت من الشهادة الثانويّة. وعندما سألتها أوّل مرّة على انفراد، بعد أن استأذنت زوجها: «ميرنا شو حاسّة؟»، قالت: «قلبي مقطوع. ما عرفانة شو صاير فيي». قلت: «كنت تصلين؟» قالت: «أبونا، لا تتوهم، أنا مثل أيّ صبية تانيّة. بعرف أبانا والسلام بس، ما بعرف شي تاني». بعد سنة فوجئنا إذ كانت «ميرنا» واقفة تصلّي، أخذ الزيت ينسكب من رأسها ويديها، وفقدت توازنها، حملوها إلى السرير. ظلّ الزيت ينسكب، ثم رسمتْ علامة الصليب على صدرها، وغابت عن العالم الخارجي. كنّا نأتي دائماً بالأطباء من مختلف الاختصاصات. يراقبون ما يجري. وبدأنا نصوّر للتوثيق بـ(الفيديو). وكانت «ميرنا» تغيب خلال هذه الحالة، فلا ترى، ولا تشعر، ولا تسمع. والأطباء كانوا يُخضعونها خلال الانخطاف لاختبارات قاسية. أحدهم أدخل سكيناً بين اللحم والظفر، نفر الدّم، لم تشعر بشيء. وقد حدث لها هذا الأمر ٣٧ مرّة، وفترات الانخطاف تراوحت بين ٥ دقائق وساعة ونصف الساعة. كنّا نسألها ما الذي رأيته؟ كانت تقول أحياناً: رأيت نوراً... وأحياناً رأيت السيدة العذراء، وقالت لي كذا... فكنا نكتب ما تمليه علينا... وبدءاً من ٣١ أيار عام ١٩٨٤، كان يومها عيد صعود السيد المسيح إلى السماء، فوجئنا بانسكاب الزيت من عينيها، ثمّ بعد نصف ساعة، فتحت عينيها وأملت الرسالة التي قالها لها السيد المسيح. وكان يسوع لأوّل مرّة في التاريخ، يتكلّم اللغة العربية. وتوالت بعد ذلك حالات الانخطاف، وتناوب يسوع الحديث مع السيدة العذراء، تارة هو، وتارة هي. كلّ ذلك مُسجّل، سأعطيكم كتيباً في نهاية اللقاء. تقرؤون فيه كلّ ما قاله السيد المسيح والسيدة العذراء، وقد نُقل بأمانة مطلقة. ما قالاه كان يشير أوّل ما يشير إلى أمور خَطرة ستجري في سورية.

في ٤ تشرين الثاني من العام ١٩٨٣، قالت السيدة العذراء لـ«ميرنا» في الانخطاف: «قلبي احترق على ابني الوحيد، ما رح يحترق على كلّ ولادي». هذه العبارة أثارت لدينا تساؤلات: ترى ما الذي يمكن أن يحدث! ولكن الرسالة كانت تشير إلى شيء خطر جداً. وتوالت الرسائل، إلى أن أتتنا رسالة عام ٢٠٠٤ يوم سبت النور، في ١٠ نيسان منه، ويومها كان حاضراً إعلاميون ولاهوتيون على نطاق العالم، وأطباء كبار من مختلف أنحاء العالم. وكانوا يسجّلون كلّ مشاهداتهم بالفيديو. وفي العام ٢٠٠٤ بالذات، أخضعوا «ميرنا» لاختبارات طبيّة مختلفة، لئلا يكون هناك ما يمكن أن يكون احتيالاً. وإليكم حرفياً رسالة يوم سبت النور من عام ٢٠٠٤. قال السيد المسيح: «وصيتي الأخيرة لكم ارجعوا كلّ واحد إلى بيته، ولكن احملوا الشرق في قلوبكم. من هنا انبثق نورٌ من جديد، أنتم شعاعه لعالمٍ أغوته المادة والشهوة والشهرة حتى كاد أن يفقد القيم. أمّا أنتم، فحافظوا على شرقيتكم، لا تسمحوا أن تُسلب إرادتكم، حريتكم، وإيمانكم في هذا الشرق». يومها كان أطباء من الولايات المتحدة وألمانيا والنمسا وفرنسا والسويد والدانمارك والنرويج ولبنان وسورية. أمّا الطبيب الذي قدم من الولايات المتحدة، فقد كان الدكتور «أنطوان منصور»، الذي رافق الظاهرة، منذ عام ١٩٨٦، بفضل صديقه المطرب «طوني حنّا». فمنذ عام ١٩٨٦، لم يعد يغيب عن الصوفانيّة في أسبوع الآلام. وهو كان أوّل من دعا «ميرنا» للسفر إلى أميركا، إثر الرسالة التي أتت عام ١٩٨٧، والتي أكد السيد المسيح فيها لميرنا، فيما قال: «اذهبي وبشري في العالم أجمع، وقولي بلا خوف أن يعملوا من أجل الوحدة...». يومها اتصل بي الدكتور «انطوان منصور» من لوس أنجلوس، ليعلم ما حدث. فأخبرته وأمليت عليه الرسالة كاملة. وإذ به بعد ٤ أيام، يقول: ادعوا «ميرنا» لتبدأ جولاتها من أميركا. ظللنا الأب معلولي وأنا سنة كاملة نتردد. «ميرنا» لا تملك لغة، حتى لغتها العربيّة قاصرة. ثقافتها عادية جداً. وأميركا غول. أين تريد لنا أن نزجّ بـ«ميرنا» في أميركا؟ وبعد سنة سمحنا لـ«ميرنا» بأن تسافر مع زوجها وطفلتهما، وكتبنا رسالة لـ«ميرنا» وزوجها نقول لهما فيها: احرصا على إقامة الصلاة فقط. لا تؤخذا بالإعلام، ولا بالسهرات، ولا بالدولارات. أنتما ماضيان للصلاة فقط. أقاما عند الدكتور «منصور» ٦ أشهر، بعد أن تلقيا دعوة من أسقف في أميركا. وفي بيت الدكتور، عاد الزيت ينسكب من نسخ صورة سيّدة الصوفانيّة. وبات الناس يأتون بالمئات ليصلّوا. وحدث لميرنا انخطاف يوم ١٥ آب عام ١٩٨٨. يومها كان الفنان «وديع الصافي» موجوداً في البيت. وأتت رسالة خاصّة بأميركا. هذا كلّه مدوّن وموثّق توثيقاً دقيقاً. منذ ذلك الحين، سافرت ميرنا إلى أميركا ١٥ مرّة. الآن هي في أميركا وستعود بعد ١٠ أيّام. سافرت إلى كندا ٩ مرّات. إلى أستراليا مرّتين. إلى أوروبا عشرات المرّات. وفي الوطن العربي وسورية عدد من الجولات لا يحصى. وكنت في الغالب أرافقها مع زوجها. وكنت أشاهد الناس في هذا الغرب المادي، يأتون بالألوف، بل بعشرات الألوف. بعض الصلوات كانت تستمر ٥ ساعات. شيء لا يصدّق. كنت أقول للناس أنتم تعيشون في ماديّة. ولكن وجود «ميرنا» بينكم وظهور الزيت، كشفا لي أنكم تعيشون على بحارٍ من الإيمان، كما نعيش نحن العرب على بحار من النفط. تحتاجون إلى من يحرككم ويوقظ الإيمان فيكم. وكانوا على العموم غربيين يأتون. وكنت أراهم يصطفون في تواضعٍ مذهل. وكثيراً ما كانوا يبكون. وطلبت من الكثيرين منهم أن يكتبوا شهاداتهم، وبهذه الشهادات ملأت الكتب التي نشرناها بالعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة... مجلد واحد عام ١٩٩٠، ومجلدات ثلاثة عام ٢٠٠٨. سأريكم بعد لحظات أرشيف الصوفانيّة... بعض الوثائق وشهادات الأطباء وردت كلّها في هذه الكتب. وقد وضع حتى الآن لا أقلّ من أربعين كتاباً، في مختلف لغات العالم، من أطباء ولاهوتيين وعلماء في الغرب. وكلّها عندي.

إذاً ما أريد أن أقوله هو أنه حدث في دمشق شيء خارق. ولكن الناس كانوا يأتون، يشاهدون، ثمّ ينسون. لم أشر إلى ظاهرة انفتاح الجراح في جسد «ميرنا». أوّل مرّة انفتحت الجراح يوم الجمعة ٢٥ تشرين الثاني عام ١٩٨٣. يومها دعونا ٨ أطباء، وبعضهم حيّ حتى اليوم. الجراح انفتحت بعد الظهر الساعة ١٦:٠٠، والتأمت كلياً الساعة ٢٣:٠٠ في اليوم نفسه. بعض الأطباء شاهدوا، ولكنهم رفضوا أن يكتبوا الشهادات. آخرون كتبوا شهاداتهم، وهم مدهوشون. وتكرر فتح الجراح في الأعوام التي كان الكاثوليك والأرثوذكس يحتفلون فيها بعيد الفصح معاً. وهي الأعوام: ١٩٨٤ – ١٩٨٧ – ١٩٩٠– ٢٠٠١– ٢٠٠٤. وكان الأطباء واللاهوتيون والإعلاميون يأتون في هذه السنوات خصيصاً من بلدان كثيرة، ليشاهدوا بأمّ العين ويصوروا بأنفسهم. هناك كتابات رائعة كتبت. أنا شخصياً دونت ما شاهدت. وما كتب آخرون من أطباء وعلماء ولاهوتيين وأناس عاديين، وجدت من واجبي أن أجمع بعضها، وأن أضمّها في كتاب، والكتاب بات وثيقة. هذا الذي حدث يفقأ العين التي لا ترى، ولكن أهل الشام ما يزالون حتى الآن يرفضون ويقولون حتى اليوم أين المعجزات؟ المعجزات تجري تحت عيونكم. وكثيراً ما أعاتب الناس في الصلاة. أحياناً تكون الكنيسة هنا مكتظة بالناس، وأرى من واجبي أن أذكّرهم بما حدث، لأذكّرهم بأن ما يقال في الإنجيل وما يُقرأ فيه، لم يكن في الماضي فقط. تكرّر حدوثه في زماننا. لا بل هيّأنا لهذا الزمن الصعب. ولكن الناس يصرّون على الرفض. لست أدري ما السبب، بالفعل لست أدري. يؤلمني هذا الواقع. أنا بالنسبة إليّ مثلاً، الذي يحدث في سورية، أحاول أن أفهمه، أقرأ، أتابع، لدي مكتبة كبيرة. كنت اتوقع، ولكني لم أكن أتوقعُ أن يكون على هذا القدر من الهمجيّة التي نراها. كنت أتوقع شيئاً مرعباً، ولكن لا بالقدر الذي نراه. ومع ذلك أظل ثابتاً، هادئاً، واثقاً من أن هذه الأزمة سائرة إلى نهايتها، استناداً إلى ما جرى في الصوفانيّة، واستناداً إلى ما قاله السيد المسيح والسيدة العذراء، وقد قلت ذلك علناً على التلفزيون، في ثلاث حلقات على محطّة «تلاقي». وأيّاً كان الذي يسألني أقل له: «لي تحليلي ولكم تحليلكم. ولكن مستندي الأكبر هو الصوفانيّة وما حدث فيها».

وفي عام ٢٠١٤ اجتمع ٣ شبّان مسلمين، وطلبوا مني أن يصوروا أحداث الصوفانيّة في عمل تلفزيوني. واطلعوا على وثائق الفيديو والتسجيلات، وكانوا يأتون أحياناً ويصلّون معنا. يوم ١٧ نيسان ٢٠١٤، أتاني المسؤول عنهم واسمه «أحمد»، وقال لي اسمح لي أبونا أن أضع الكاميرا لأصوّر. قلت له: «أحمد، مضى ١٠ سنوات لم يجرِ شيءٌ خلالها، فما الذي يجعلك تتصور أن شيئاً ما سيحدث؟». قال: «أبونا معلش قلبي قايلي». قلت له: «ضع الكاميرا». وضع الكاميرا الساعة ١٦:٠٠. فجأة انتاب ميرنا وجع رأس قاسٍ، بحيث إنها لم تعد تتمالك نفسها. فاضطجعت في سريرها وفي الساعة ١٦:١٥، بدأ الزيت ينسكب من يديها وعينيها. يومها كان عيد الجلاء في سورية، وكان يوم الخميس ١٧ نيسان. أقمت القدّاس. ظلت «ميرنا» في الغرفة مع عدد من المؤمنين والأب «بولس فاضل». أنهيت القدّاس في الساعة ١٨:٠٠. خرجت ميرنا من الغرفة مع المؤمنين وأبونا «بولس». وأعطاني أبونا «بولس» ورقة صغيرة جاء فيها ما قال السيد المسيح لميرنا: «الجراح التي نزفت على هذه الأرض هي عينها الجراح التي في جسدي، لأن السبب والمُسبّب واحد، ولكن كونوا على ثقة بأن مصيرهم مثل مصير يهوذا». هذه الرسالة ما كان لأحد أن يتوقعها. أتت لتكرّم جميع شهداء سورية، وجميع منكسري القلوب في سورية، «الجراح التي نزفت»... بهذه العبارة يقول السيد المسيح: «أنتم أنا، وأنا أنتم. نحن نؤمن في المسيحيّة أن المسيح صُلب ليفدي البشر، وأنه قُتل ومات، ولكنه قام. وفي هذه الرسالة يقول «يسوع» أنتم تتألمون كما تألمت أنا، فداء عن البشر، وبالتالي أنتم تتألمون فداء عن البشريّة. وهو يضع في مرتبته بالذات شهداء سورية ومعذّبي سورية، وبالتالي يؤكد خروج سورية كما خرج هو من القبر. هذا إيماني، وهذا تحليلي للأمور. وقد أردف السيد المسيح يقول: إن السبب والمُسبّب واحد. من يعرف لمَ قُتل يسوع، ويعرف التاريخ، يعرف بأن الذين قتلوه هم اليهود، وقتلوه ليستأصلوا التوجّه الروحي الذي حمله لهم، كما حمله لهم الأنبياء من قبله. أرادوا التخلص منه، ولكنه أضاف: «ولكن كونوا على ثقة بأن مصيرهم مثل مصير يهوذا». يومها كانت داعش تحتل ثلاثة أرباع المساحة في سورية والعراق. أين هي اليوم؟، كونوا على ثقة... الرسالة حملت كرامةً لكلّ إنسانٍ في سورية، وحملت أملاً ويقيناً بخروج سورية من الصلب الذي أرادوه لها. لذلك أعيش أنا في طمأنينة، وإن كان قلبي يبكي ليلاً ونهاراً، لأن ما جرى في هذا البلد، لم يجرِ مثله في العالم أبداً. أريد أن أشير إلى شيئين أخيرين: الصورة التي نضحت زيتاً، لم نكن نعرف منشأها، فأطلقنا عليها اسم «سيدة الصوفانيّة»، باسم الحارة التي حدثت فيها المعجزة. وفي عام ١٩٨٩، عرفنا أن هذه الأيقونة إنما هي نسخة من أيقونة مشهورة تُعرف باسم سيدة قازان، وهي شفيعة روسيا. وعندما رفعت روسيا الفيتو في هيئة الأمم، فهمتُ لماذا هذه الصورة بالذات هي التي نضحت زيتاً... والشيء الثاني هو أن الزيت الذي ظهر في عيني «ميرنا» وفي الأيقونة، فحصناه في مركز البحوث بدمشق، وفُحص مرتين في مخبرين في ألمانيا، دون أن يشار إلى مصدر الزيت، وفحص في باريس، وفحص في روما. والنتائج جميعها أكدت أن الزيت إنما هو زيت زيتون صاف ١٠٠٪. هذه معجزات جرت في دمشق. وإذا كان الناس يرفضون أن يروها، فالحق ليس على الله الذي أجرى المعجزات، بل علينا، لأننا نرفض أن نرى. وأنا أتساءل في خضم هذه الجحيم التي فُرضت علينا: ما الذي يستندون إليه في مواجهة هذه الحالة الهائلة من اليأس؟ أنا أستند إلى الصوفانيّة. والصوفانيّة ليست «ميرنا». كثيراً ما أقول للناس هنا وفي العالم: كان بوسع الله أن يختار محل ميرنا أي صبية. ليس لـ«ميرنا» أي صفة تؤهلها لهذا العمل. وتاريخ المسيحيّة مملوء بأشخاص ما كانوا يملكون أية صفة، الله حرٌ في اختياراته... إن من يراها اليوم بعد ٣٤ سنة، ويرى مدى بساطتها وتواضعها، فإنه يقول: إن الله لم يخطئ في اختياره، لأنها برهنت عن تواضع حقيقي، عن امحاء مطلق، وعن تجرّدٍ مذهل. فهم حتى اليوم لا يقبلون قرشاً واحداً، والبيت مفتوحٌ للصلاة. ثمّ لا تنس: عندما يختار الله إنساناً ما، يمنحه من عنده ما يحتاج إليه، لكي يتجاوب مع هذا الاختيار.

> الرسالة حملت كرامةً لكلّ إنسانٍ في سورية وحملت أملاً ويقيناً بخروج سورية من الصلب الذي أرادوه لها

احتفظ بالشخص الذي يتصل بك في زمن الكتابة

ألكسندر غراهام بل استوحى الفكرة من الإيطالي أنطونيو ميوتشي!

ديالا غنطوس

احتفظ بالشخص الذي ما زال يتصل ليسمع صوتك في زمن الكتابة... تلك جملة قرأتها في أحد المواقع الإلكترونية التي تعنى بنقل كل ما هو جميل وجديد، وتذكرت كم أصبحنا أشخاصاً إلكترونيين، نستخدم التقنية الجافة، عديمة اللهفة والحفاوة، فنحادث بعضنا بأحرف مطبوعة وننقل مشاعرنا ببضع كلمات مختزلة في جمل خالية من أي عناق وتعبير، كم أصبحنا بعيدين عن أحبائنا، فنرسل لهم رسائل عبر الهاتف حتى لو كانوا يجلسون بقربنا، على المقعد المجاور أو على المقعد ذاته، لغة الكلام اختفت تقريبا، واختنق الصوت في حناجرنا لنحوله إلى رسائل نصية قليلة الدسم، خالية من حريرات العاطفة، لتتبع مشاعرنا نظام حمية صارماً وتفقد معها الكلمات والأصوات وزناً كبيراً مما يجول في خاطرنا.

المقدمة تلك كانت لأستذكر فيها ألكسندر غراهام بل، أول مخترع للهاتف في العالم، الذي ولد عام ١٨٤٧، والذي يعتقد أنه استوحى فكرة الهاتف من المخترع الإيطالي أنطونيو ميوتشي، تركت طفولة جراهام بل ونشأته أثرها البالغ عليه ورسمت المسار الإبداعي الذي سلكه في حياته، والدته وزوجته الصمّاوتان كانتا جوهر تجاربه في مجال أجهزة السمع والكلام، في سنوات شبابه المبكرة اتجه بل إلى تعليم الصم والبكم ومساعدتهم، وصولاً لتأسيسه مدرسة متخصصة لهم في بوسطن، تحولت إلى جامعة بوسطن، وأصبح فيها بل أستاذاً لفسيولوجيا الصوت وأساليب التخاطب.

بدأت فكرة اختراع الهاتف بمداعبة خيال غراهام بل منذ كان شاباً يافعاً، إلى أن اخترع فكرة إرسال خطاب ببلوغه سن الثامنة عشرة، التي أوصلته عام ١٨٦٤م إلى عمل البرقية، وقد طبق فيها المبادئ الأساسية في صناعة الهاتف، بعدها بعشرة أعوام في عام ١٨٧٤م بدأ غراهام بل تجاربه المبدئية على التلغراف الموسيقي «فونوتوغراف» الذي يبدو كالقلم ووظيفته تتبع الموجات الصوتية ورسم أشكالها على لوح زجاج، في العام ذاته ومع ازدياد الحاجة للرسائل التلغرافية حيث أصبحت أشبه بعصب التجارة، كان العمل قد بدأ على إرسال عدة رسائل من خلال التلغراف، وفي عام ١٨٧٥م سعى بل إلى إيجاد طريقة تسمح بنقل صوت البشر عبر التلغراف، بالتعاون مع المصمم الكهربائي والميكانيكي «توماس واتسون» الذي أصبح مساعداً له وشرعا بإجراء التجارب معاً، بدءاً من تمكنهما من سماع النغمات التوافقية للقصبة المعدنية المتعددة التي يتم ضبطها لترددات عدة مثل القيثارة والتي وظيفتها تحويل التيارات المتموجة إلى صوت مرة أخرى، وهكذا تمكن ألكسندر غراهام بل عام ١٨٧٥ من تطوير جهاز التلغراف الصوتي واختراع الهاتف، ونال على ذلك أول براءة اختراع أميركية عام ١٨٧٦ ذُكر فيها أنه اخترع «طريقة وجهاز لنقل الصوت أو غيره من النغمات تلغرافيا»، ومع قدوم العام التالي أنشأ بل شركة هاتف خاصة به، مكّنت أكثر من ١٥٠ ألف أميركي من امتلاك هواتف عام ١٨٨٦

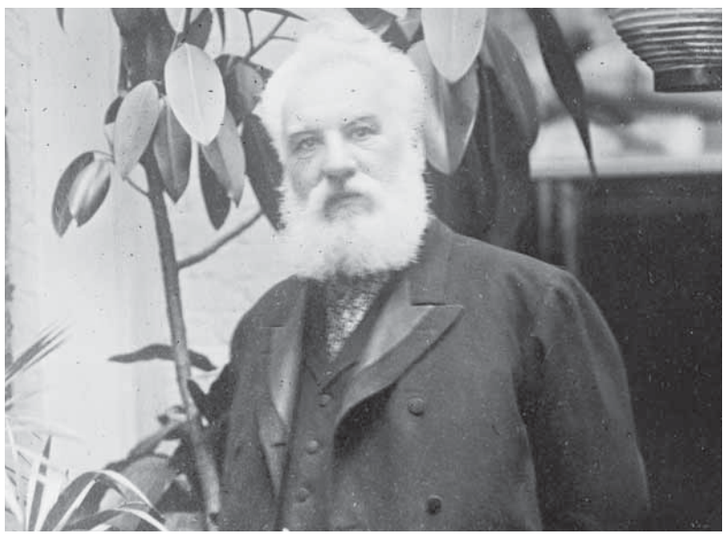

أي بأقل من ١٠ أعوام من إنشاء الشركة، وطبعاً خلال تلك الفترة وبعدها قام مهندسو الشركة بتطوير الهاتف وإضافة العديد من التحسينات إليه.

إذاً تمكن ألكسندر غراهام بل من إيجاد الحلقة الأولى من سلسلة وسائل الاتصال الآلية، التي لم تكف حلقاتها عن التكاثر والتطور إلى يومنا هذا، شيئاً فشيئاً مروراً بمراحل عدة، بدءاً من الهاتف الثابت ثم الهاتف اللاسلكي ذي موجات محدودة المسافة، بعد ذلك وُجدت الهواتف النقالة الخلوية التي حررت المتكلم من قيد الثبات بمكان وجود الهاتف، وصولاً إلى اختراع الحواسب المكتبية والمتنقلة، ثم ظهر الإنترنت الذي أحدث ثورة تقنية وفرت إمكانية التواصل بين الناس بأي وقت عن طريق المحادثات النصية والصوتية وبعدها المحادثات المرئية، ولاحقاً ظهرت أجهزة الهاتف النقال الذكية والحواسيب اللوحية حيث بات بمقدورنا استخدامها للتواصل مع الآخرين بكل الوسائل أينما كنا وبجودة عالية، وخصوصاً مع توفر ما يسمى «الإنترنت الفضائي» المربوط بقمر صناعي متاح في العالم كله بما في ذلك السفن في البحر أو الطائرات أو المركبات المتنقلة.

لكن هل توقف الأمر عند هذا الحد فيما يخص وسائل التواصل؟ حاول الإجابة عن هذا السؤال «سبايك جونز» مؤلف ومخرج فيلم الخيال العلمي Her» عام ٢٠١٣»، يناقش من خلال الفيلم أزمة العلاقة بين الإنسان الحديث والتكنولوجيا وتأثيرها عليه ككائن اجتماعي، ويقدم رؤيته حول إمكانيات التواصل وأساليبه التي قد تتوافر لنا بالمستقبل المنظور، وهي رؤية قد يعتبرها بعضنا مأساوية وبعضنا الآخر ربما يرى فيها حلاً وتحولاً عظيماً، باختصار، يتكلم الفيلم عن كاتب «ثيودور» ينشىء علاقة مع نظام تشغيل رقمي ذكي قام بشرائه، له صوت وشخصية أنثى اسمها «سامانثا»، يجد ثيودور (الإنسان) نفسه منجذباً لـ«سامانثا» (نظام التشغيل)، ومع قضاء أوقات أكثر مع بعضهما البعض تنشأ علاقة وثيقة تتكلل بوقوع كل منهما بحب الآخر، يستفيد ثيودور من ذكاء سامانثا العالي بطرق عديدة لا يتمكن منها أي إنسان، على كل الصعد نفسياً واجتماعياً وخدمياً، حيث يتيح لها الدخول إلى كامل ملفاته الخاصة الموجودة على جهازه ومراسلات البريد الالكتروني وأرقام الهواتف، لتتمكن من جمع معلومات مفصلة عنه وتوظيفها لاحقاً في خدمته بعد تكوين صورة شاملة لشخصيته، ومع مرور الوقت وازدياد كمية المعلومات المخزنة تتطور شخصية سامانثا لتتلاءم مع جميع متطلبات ثيودور، فيزداد اعتماده عليها بالتواصل مع أصدقائه، وتحل معه ضيفة مرافقة له أثناء لقاءاته بهم، كما تتولى مهمة الإجابة عن المراسلات في بريده الالكتروني بدلاً منه عند انشغاله، حتى إنها باتت تطالع الأخبار وتستشعر ما يفضله ويثير اهتمامه منها فتقدمها له، وامتلكت القدرة على تأليف الألحان والأغاني التي توائم ذائقته السمعية فتهديه إياها، تستطيع إنجاز كل ذلك بثوان معدودة، هذا كله كان مسوغاً كافياً لسامانثا «نظام التشغيل» لتحل مكان العنصر البشري في حياته، وأن تزيد من عمق عزلته والهوة بينه وبين البشر، كما حدت من قدرته على الاعتماد على نفسه لكونها أصبحت بديلاً من عقله البشري عبر نجاحها بتنفيذ كل أدواره، فتؤدي به إلى الكسل وإدمان الاتكال عليها والاستسلام لها.

يظهر في نهاية الفيلم أنه حتى التكنولوجيا المتجسدة بنظام التشغيل «سامانثا» تتطور وتصبح لها شخصية مستقلة غير مطوّعة ومتطلبات يجب تلبيتها من المستخدم، تتغير سامانثا وتسعى للانسلاخ عن مشغلها، بعد أن تمكنت من تغيير حياته والاستحواذ عليه، ومن هنا يطلق صانع الفيلم تحذيره من خلق أساليب تبدل من طبيعتنا البشرية وتحدّ من تواصلنا مع باقي أفراد جنسنا البشري، وهنا أستحضر صرخة العالم الفيزيائي الشهير ستيفن هوكينغ بقوله: «إن تطوير ذكاء اصطناعي شامل قد يمهد لنهاية الجنس البشري بالكامل».